

التلقي العربي لنقد ما بعد الاستعمار

د.ألاء ياسين دياب*

(الإيداع: 24 آيار 2025، القبول: 4 أيلول 2025)

الملخص:

تعدّ العلاقة بين المركز (الغرب المستعمر) والهامش (المستعمر) علاقةً جدليّةً، ترمي بظلالها على السياق الثقافي المتحوّل معرفيّاً، فلا يمكن النظر إلى الاستعمار بوصفه قضيةً تاريخيّةً بل هو محدّدٌ ثقافيّ بقدر ما هو اجتماعيّ، من هنا تتحدّد خصوصية نقد ما بعد الاستعمار، فهو انفتاحٌ على الهوامش، يتيح مساءلة الهيمنة الغربيّة بأبعادها الظاهرة والمضمرة. لذلك سعى البحث إلى عرض التلقي العربيّ لنقد ما بعد الاستعمار بوصفه مساراً معرفيّاً، يسعى إلى تقويض الهيمنة الغربيّة، ويحاول تعزيز الرهان على التحرر الثقافيّ كبعدٍ من أبعاد التحرر الاجتماعيّ والسياسيّ، فقد أعاد تشكيل الرؤية التي يُنظر بها إلى ثقافات الدول المستعمرة، فكان فاعلاً ومؤثراً في ذلك. والنقد العربيّ في صيرورة تشكّله الحدائي وما بعد الحدائي استحضّر نقد ما بعد الاستعمار استحضاراً محدوداً؛ لذلك حاول البحث التعرّض للمراحل التي مرّ بها الاستقبال العربيّ لنقد ما بعد الاستعمار، وهي: أولاً: مرحلة الشرح والتوضيح: حيث كان الاستقبال العربيّ فاقداً للفعالية والجدوى، يقوم على اجترار فكر إدوارد سعيد بشكل رئيسيّ. وثانياً: مرحلة البدايات: في هذه المرحلة، تمّ تسليط الضوء على عدّة تجارب نقدية، اعتمدت على طرحٍ منهجيّ، يعي إشكاليات الفكر العربي المعاصر من جهة، ويقدم تصوراً عميقاً للبنى الاجتماعيّة والثقافيّة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: استقبال، ما بعد الكولونياليّة، الثقافة العربيّة.

* دكتوراه في النقد العربي الحديث – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة دمشق

Arab reception of postcolonial criticism

Ala'a Yaseen Diab*

(Received: 24 April 2024, Accepted: 4 September 2024)

Abstract

The relationship between the center (the colonizing West) and the margin (the colonized) is a dialectical relationship that casts its shadow on the cultural context that is changing cognitively. Colonialism cannot be viewed as a historical issue, but rather as a cultural determinant as much as it is social. Hence, the specificity of postcolonial criticism is determined. It is an openness to the margins, allowing for questioning Western hegemony in its apparent and implicit dimensions. Therefore, the research sought to present the Arab reception of postcolonial criticism as an epistemological path that seeks to undermine Western hegemony and attempts to enhance the bet on cultural liberation as a dimension of social and political liberation. It was able to reshape the vision through which the cultures of colonized countries are viewed, and was effective and influential in that. Arab criticism, in the process of its modernist and postmodernist formation, invoked postcolonial criticism in a limited manner; Therefore, the research attempted to address the stages that the Arab reception of post-colonial criticism went through, which are: First: The stage of explanation and clarification: where the Arab reception lacked effectiveness and usefulness, and was based primarily on regurgitating Edward Said's thought. Second: The stage of beginnings: In this stage, light was shed on several critical experiences, which relied on a methodological approach, aware of the problems of contemporary Arab thought on the one hand, and presenting a deep vision of social and cultural structures on the other hand.

Key words: reception, post –colonialism, Arab culture

* Doctorate in Modern Arab Criticism– Faculty of Letters and Humanitarian Sciences–
Damascus University

مقدمة:

يكتب نقد ما بعد الاستعمار أهميته من تعدّد مدخلاته الفكرية، فضلاً عن كون رواده يحملون انتماءاتٍ، تجمع بين المستعمر والمستعمر¹؛ لذلك تمكن من خلعة البنى الغربية وزعزعة ثوابتها، وعلى الرغم من أنّ الاستعمار انتهى منذ عقود، لكنّ الهيمنة الاستعمارية ما تزال تمثل إشكالية معرفية، تتطلب البحث والمساءلة، فإذا زال الاستعمار العسكري، فإنّ أبعاده الاقتصادية والسياسية، ما تزال قائمة، وهذا ما يمكن تسميته بـ "الاستعمار المخاتل"². في ضوء ما تقدّم، فإنّ استقبال النقد العربي المعاصر لنقد ما بعد الاستعمار، يشكّل رهاناً، نظراً لكون دول العالم العربي خضعت لمدّاتٍ طويلةٍ من الاستعمار، لكنّ عملية تفكيك آثار هذا الاستعمار ثقافياً ونقدياً، بقيت عاجزةً عن تحديد ماهية التغيرات الحاصلة بفعل الاستعمار، فالدراسات التي قاربت ذلك، بقيت في سياق العرض دون تأصيلٍ منهجي، ويعود السبب في ذلك إلى: قلة المخزون الدلالي المحفوظ في الذاكرة السياسية العربية، كما أنّ فصل الرأسمالية عن تشريح الاستعمار، شكّل نقطة انحرافٍ عن المسار الصحيح لنقد وتفكيك الإمبريالية، وتتمحور طروحات إدوارد سعيد حول الكينونة الجغرافية (الشرق) التي شكّلها الغرب، والتي أصبحت دراستها تدعى بالاستشراق، ممّا سهّل السيطرة على العالم غير الأوروبي، وجعل من الممكن خلق مجموعة من المؤسسات والمفردات المستترة خلف هذا الفرع الدراسي، وأخيراً خلق أعرافاً بشرية تبائع³.

أسباب اختيار البحث:

إنّ الأسباب التي دفعت للقيام بهذا البحث، تتجلى في كونه محاولة للنظر في طبيعة التلقّي العربي لخطاب ما بعد الاستعمار، والكشف عن مضامينه المعرفية عبر الدراسة المقارنة بين تلقي النقاد العرب لمفاهيم وطروحات إدوارد سعيد.

فرضية البحث

هل يمكن النظر إلى تلقي النقاد العرب لنقد ما بعد الاستعمار بوصفه إعادة إنتاج للعلاقات السياسية والاجتماعية؟ طرح البحث هذه الفرضية محاولاً أن يقدّم صورةً للنقد العربي في تلقيه لنقد ما بعد الاستعمار، فالنقد الأدبي بنياناً من أبنية الثقافة، ومرآة لأزماتها، وصورةً عن بلبلتها وارتباكها في تفاعلها مع الآخر الغربي، والتلقّي العربي للاستشراق يمكن اختصاره في أحد مسارين:

1. إنّ القراءات العربية للكتاب، انسقت مع التوجّهات الغربية لا عارضتها كما هو متوقّع.
2. إنّ القراءات العربية كانت مختزلة، لم تتعدّ خزانة ردّ الفعل الانفعالي والعاطفي.

منهج البحث

استعان البحث بمنهج، يجمع بين المنهج الاستقرائي الكامل والمقاربة التأويلية، كون الآراء المقدّمة من طرف البحث، تقف أولاً على وصف الطابع الصوري الشكلي للظاهرة، ثمّ تتجاوز ذلك وفق المقاربة التأويلية إلى استكناه البنية العميقة التي تتساكن داخل هذه الخطابات.

أهمية البحث

تحدّد أهمية البحث من محاولة رصد تجارب نقدية، تعكس أنماطاً من الوعي والممارسة النقدية؛ بحيث لا تقف عند أعمالٍ بعينها بقدر ما تحاول أن تبلور التصورات النقدية العربية لنقد ما بعد الاستعمار.

¹ ظهرت الإلهامات الأولى لهذا النقد في الأوساط الأكاديمية الجامعية الأمريكية، وارتبط بـ جامعة كولومبيا خاصة، وكان زوّاده ومُنظّروه من الأقليات المهاجرة، وأبرزهم: الفلسطيني إدوارد سعيد والهندي هومي بابا والهندية غاياتري شاكرافورتى سبيفاك، وقد سمّوا بـ (الثالوث المقدّس لنظرية ما بعد الكولونيالية)، فهؤلاء استطاعوا زعزعة الخطاب الغربي الاستعماري بناءً على تجاربهم الشخصية من جهة، واستناداً إلى جروح بلادهم الكولونيالية من جهةٍ أخرى.

² أبو شهاب، رامي: الرئيس والمخاتلة: خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر (النظرية والتطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013م، ص 126.

³ انظر: إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة: محمد عناني. ط1. القاهرة: مصر. رؤية للنشر والتوزيع. 2006م، ص: 143-144

أولاً: مرحلة الشرح والتوضيح:

الاستقبال العربي لخطاب ما بعد الاستعمار، كان استقبلاً فاقداً للفعالية والجدوى، يقوم على اجترار فكر إدوارد سعيد بشكل رئيس، وهذا الاستقبال يندرج في عدة سياقات:

أولها: دراسات ما بعد الكولونيالية.

ثانيها: آداب ما بعد الكولونيالية، ومحاولة تحديد ملامحها وسماتها وخصائصها.

ثالثها: نقد ما بعد الكولونيالية بما فيه من أدوات إجرائية وإستراتيجيات نقدية.

وقد أرجع الناقد رامي أبو شهاب¹ الأسباب إلى ما يسكن العقلية العربية من لاوعي نقدي، ما يزال يؤطر الآداب ضمن سياق التشكيل الجمالي اللغوي الإنساني؛ مما يسوغ شيوع النقد الألسني في النقد العربي؛ نظراً لتشابهه مع المسار الذي أرساه النقد العربي القديم، في حين أن أي مسار نقدي يتضمن تداخلاً مع حقول معرفية أخرى، لن يجد صدقاً في النقد العربي المعاصر.

لكن معظم ما قُدم في سياق الاستقبال العربي لنقد ما بعد الاستعمار، لا يتعدى الشرح والتوضيح، ولا يصل إلى مستوى القراءة المدركة للتكوين المعرفي والتنظيري للأسس النظرية، فعلى الرغم من الحضور الكولونيالي في الثقافة العربية وعلى الرغم من خصوصية العلاقة بين الاستعمار والثقافة العربية؛ فإن التمثل العربي لنقد ما بعد الاستعمار لم يرق إلى مستوى إشكاليات هذه العلاقة وأزماتها، إذ لم يتمكن النقاد العرب من قراءة الواقع العربي المعاصر في ظل النسق السلطوي، ولم يلتفت النقاد العرب للأثر الكولونيالي في التعليم والإعلام وغيرها، فنقد ما بعد الاستعمار لم يحدث تحولاً نوعياً في مسار النقد العربي المعاصر، وبقي كالثقافة العربية تتجاذبه رؤيتان، إحداها: تلك التي تنظر إلى الآخر الغرب بوصفه مُحَضَرًا ومتقدماً، فتقبل على علومه وثقافته؛ لتنهل منها. والأخرى تنظر إلى الغرب من منظور ما زرعه في الذاكرة العربية من ممارسات استعمارية لا تُنسى، فترفضه، وترفض فكره.

إن تلقى نقد ما بعد الاستعمار أظهر إشكاليات جديدة، لم تظهر في تلقى المناهج الأخرى، إذ إن تلقى هذا التيار بقي في حدود الشرح للأطروحات الفكرية المقدمة من إدوارد سعيد أو عرض النظرية ضمن السياق الفكري الذي رسم حدوده دون غيره من رؤود النظرية. فسعيد حاول في كل مؤلفاته تقويض التمرکز الغربي ومساءلته، وقد عبّر إدوارد سعيد نفسه عن خيبة أمله؛ لأن تأثير كتابه (الاستشراق) في العالم العربي كان محدوداً على خلاف الأثر الذي أحدثه في باقي مناطق العالم، وقد أرجع كريم بخيت السبب إلى: غياب تقاليد راسخة في العمل الأكاديمي داخل المؤسسات الجامعية العربية، وكذلك في خارجها، عدا عن انتفاء الوعي بأهمية فكر إدوارد سعيد في تطوير المجتمع²، في حين أن إدوارد سعيد حدّد الأسباب: بالكيفية التي أثّرت في العقلية العربية، فجعلتها تتسم بالضياح والإحباط وغياب الديمقراطية في الحياة الفكرية والثقافية في المنطقة العربية. إذ وصف التلقي العربي لمؤلفاته، بأنها تحليل أقل فائدة بالمعنى المثمر.

فالتلقي العربي لهذا الكتاب شابه الكثير من سوء الفهم وسوء الإدراك، حتى إن إدوارد سعيد نفسه تفاجأ بالانتقادات التي وُجّهت له من بعض المفكرين العرب؛ كالانتقاد الذي وُجّه له لأنه لم يُعَرِّ اهتماماً كبيراً لماركس، ولم يثمن الإنجازات العظيمة للاستشراق، وفي هذا السياق أشار نادر كاظم³ إلى أن مقارنة التلقي العربي لهذا الكتاب بالتلقيات الأخرى، تدلّ

¹ رامي أبو شهاب: كاتب وناقد أردني أكاديمي متخصص في النقد الأدبي والدراسات الثقافية وخطاب ما بعد الاستعمارية، حاصل على درجة الدكتوراة من معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة في 2010م.

² انظر: كريم بخيت، بين الأدب والنقد والسياسة: قراءة في كتابات إدوارد سعيد، مجلة بصمات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثانية، ع2، الدار البيضاء، المغرب، 2007م، ص63.

³ نادر كاظم: كاتب وناقد بحريني أكاديمي متخصص في النقد الأدبي والدراسات الثقافية وخطاب ما بعد الاستعمارية، حاصل على درجة الدكتوراة من معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.

على هشاشة الاستقبال العربي وضحاياه ويؤسسه، فالتلقي العربي حشر مشروع إدوارد سعيد في زوايا ضيقة، توجي أن القراءة العربية له لم تتعدّ الجزئيات¹، إذ لم تصل لما أراده إدوارد سعيد من إرساء تيار معرفي، يحزّر الثقافة العربية من القيود من خلال قراءات أكثر ثراءً للتجربة التاريخية العربية.

فالتلقي العربي للاستشراق يمكن اختصاره في أحد مسارين:

1. إن القراءات العربية للكتاب، اتسقت مع التوجهات الغربية ولم تعارضها كما هو متوقع.

2. إن القراءات العربية كانت مختزلة، لم تتعدّ خزانة رد الفعل الانفعالي والعاطفي.

وفي سياق العرض، تندرج دراسة يحيى بن الوليد²، ففي كتابه الموسوم بـ (الوعي المحلّق لإدوارد سعيد والعرب)، حاول عرض الجذور المعرفية للنظرية، فتطرق لكل من فرانز فانون وإدوارد سعيد بوصفه المنظر الأول لما بعد التفكيكية، فقد وصف كتاب (الاستشراق) بأنه العمل التأسيسي الأول في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، ثم انتقل يحيى بن الوليد لاستعراض جهود نقاد العالم الثالث، وأخيراً تحدّث عن أسباب شيوع النظرية وانتشارها، حتّى إنّ النظرية وصلت إلى إسرائيل، فيما يعرف بـ (تيار المؤرخين الجدد)³. وعلى الرغم من أنّ يحيى تعرّض للأسس النظرية التي قام عليها نقد ما بعد الاستعمار، وأظهر صلاته الفكرية، لكنّه لم يتطرق للتلقي العربي لنقد ما بعد الاستعمار، بل اكتفى بـ عرض آراء إدوارد سعيد، فجاء الكتاب بعيداً عن نقد ما بعد الاستعمار بقدر ما هو قريب من إدوارد سعيد بوصفه مفكراً، فيحيى بن الوليد لم يستطع الخروج من شرنقة إدوارد سعيد، بل بقي يحوم حول أفكاره عرضاً وشرحاً وتوضيحاً دون أن يقدم أي تقدّم يذكر في تلقي نقد ما بعد الاستعمار عربياً.

والى جانب يحيى بن الوليد نرى نبيل راغب⁴ الذي يندرج عمله أيضاً في سياق عرض النظرية أكثر من تبنيها رغم محاولاته تقديم بعض الإضافات، إذ عدّ نقد ما بعد الاستعمار اشتباكاً جدلياً وثقافياً وحضارياً بين الكولونيالية وما بعدها، ونظر إلى نقد ما بعد الاستعمار بوصفه جزءاً من النقد الثقافي، لكنّ عرضه لنقد ما بعد الاستعمار ارتبط نوعاً ما بالمسرح، كما اتّصف عرضه للنظرية بالتشويش والتخبّط، إذ كان انتقاله بين المحاور غير موفّق⁵.

وبالانتقال إلى سعد البازعي⁶ وميجان الرويلي⁷ في عرضهما للنظرية في كتاب (الناقد الأدبي)، نجد أنّهما عرّفا النظرية، وتطرّقا لأهمّ أعلامها ورؤاها، وما يُحفظ لهما هو التعرّض لـ عبد الوهاب المسيري وحسن حنفي، وعلى الرغم من إضاءتهما لجوانب من النظرية، حيث جاء في الكتاب " يأتي إدوارد سعيد في طليعة محلّي الخطاب الاستعماري، بل ويعده بعضهم رائد الحقل، فقد استطاع بمفرده أن يفتح حقلاً من البحث الأكاديمي هو الخطاب الاستعماري⁸ " لكنّهما أهملتا جوانب أخرى، لا تقلّ أهميّة، وهي الإشكاليات المعرفية لـ نقد ما بعد الاستعمار.

¹ انظر: نادر كاظم: إدوارد سعيد الاستشراق والتلقي العربي، ندوة فكرية بعنوان (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلّية الآداب، جامعة البحرين، 2-7 / 12، 2003م، ص 10.

² يحيى بن الوليد: باحثٌ وأكاديميٌّ مغربيٌّ، مختصّ في قضايا التراث والنقد الثقافي، حاصل على دكتوراه في الخطاب النقديّ والفلسفيّ بالمغرب.

³ انظر: يحيى بن الوليد: الوعي المحلّق لإدوارد سعيد وحال العرب، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 2010م، ص78.

⁴ نبيل راغب: كاتبٌ وناقدٌ مصريٌّ أكاديميٌّ مختصّ في النقد الأدبيّ والدراسات الثقافية وخطاب ما بعد الاستعماريّة، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة لانكستر ببريطانيا.

⁵ انظر: نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 2003م، ص 548.

⁶ سعد البازعي: ناقدٌ ومفكّرٌ ومترجمٌ سعودي، حاصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي من جامعة بيردو Purdue عام 1983، وكانت أطروحته حول الاستشراق في الآداب الأوروبية.

⁷ ميجان الرويلي: ناقدٌ ومفكّرٌ ومترجمٌ سعودي، من أبرز مؤلفاته "دليل الناقد الأدبي" بالمشاركة مع زميله الدكتور سعد البازعي.

⁸ الرويلي، ميجان، البازعي، سعد: دليل الناقد الأدبي. إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002م، ص 158.

أما حفناوي بعلي¹ فقد قدّم في كتابه المعنون بـ (مسارات النّقد ومدارات ما بعد الحداثة) عرضاً لأفكار إدوارد سعيد، فتحدّث عن علاقة السلطة بالمعرفة، وعن دور المثقّف²، ووفقاً لحفناوي فإنّ نقد ما بعد الاستعمار يتمحور حول العلاقات الثقافية بين الغرب المستعمر وكلّ ما يقع خارجه من مستعمر، وبهذا يندرج نقد ما بعد الاستعمار ضمن النّقد الثقافيّ المقارن³.

وتتحدد ملامح نقد إدوارد سعيد بـ⁴:

1. التشرنق العرقيّ الأوربيّ.
2. نصوص الاستشراق تحثّل حيّزاً يماثل تماماً موقع المستعمرة.
3. عبء الرجل الأبيض.
4. صورة الشّرق وفقاً لتصويرات الغرب.
5. النّقد المقاوم.
6. الوعي القوميّ.

لكن، هذا النّقد، لم يُستثمر استثماراً فاعلاً في الثقافة العربيّة، بل على العكس تمّ تهميش مواقع النّقل في فكره في مقابل الدوران حول قضايا، كانت نتائج لأطروحاته لا أسباباً لها، ففي حين تسبّبت مؤلّفات إدوارد سعيد في تغيير الكثير من البرامج التربويّة والأكاديميّة والبحثيّة في الدول الغربيّة، نرى أنّها لم تُقابل باهتمامٍ مشابهٍ في العالم العربيّ، على الرغم من أنّ إدوارد سعيد ينطلق في فكره من القضايا التي تمسّ واقع العرب وماضيتهم وحاضرهم، وينطلق من الأزمت التي توّرقهم، ومن الإشكاليّات التي تقف عقبةً أمام تقدّمهم الحضاريّ، حيث شكّل الشرق الموضوع الرئيس بالنسبة لإدوارد سعيد في كلّ طروحاته؛ ليوضح أنّ الاستشراق ليس خطاباً ثقافياً بقدر ما هو إطار مرجعيّ، تنطلق منه المركزيّة الغربيّة الأوروبيّة؛ لتخضع الشرق وتسيطر عليه، فوضّح الممارسات التي استخدمها الاستعمار لإخضاع الثقافات الوطنيّة، وعرض صور استجابة الدول للآرث الاستعماريّ بعد تحرّرها من الاستعمار.

وعلى الرغم من أهميّة كلّ ذلك، لم تستطع مؤلّفاته تأسيس حركة نقدية، وربّما أحد الأسباب هو أنّ النّقد العربيّ ليس متمزهاً بوصفه حركة أو تياراً أو مدرسة، بل هو تجاربٌ مستقلة، تجاربٌ مصبوغةٌ بتوجّهات شخصيّة أكثر منها منهجيّة تنظيريّة.

والناقد الوحيد الذي قدّم رأياً مغايراً في تأثير إدوارد سعيد في العالم العربيّ هو الناقد السوريّ كمال أبو ديب⁵ الذي رأى أنّ أثر إدوارد سعيد هو أثر عميقٌ وجذريّ؛ لدرجة يصعب تقديرها⁶. وفي هذا بعض الصواب، فالتلقّي العربيّ لإدوارد سعيد بوصفه مفكراً، كان مؤثراً وعميقاً في كثير من القضايا السياسيّة المعاصرة التي تمسّ الهويّة والأنا والآخر والإشكاليّات الحضاريّة بين الشرق والغرب. في حين أنّ تلقّي نقد ما بعد الاستعمار، كان هشاً وجزئياً ومتكلّساً أكثر منه فاعلاً وحيويّاً،

¹ حفناوي بعلي: ناقدٌ وأكاديميّ جزائريّ، حصل على درجة الدكتوراة في الآداب والعلوم الإنسانية والدراسات المقارنة والثقافية.

² انظر: حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النّقد الثقافيّ المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص 67.

³ انظر: حفناوي بعلي: المرجع السابق، ص 85.

⁴ يمكن العودة إلى ما أورده مجدي عزّ الدين حسن في مقاله (نقد الكولونياليّة من منظور إدوارد سعيد). انظر: مجدي عزّ الدين حسن . نقد الكولونياليّة من منظور إدوارد سعيد. مجلة الاستغراب. العدد 12. للمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت: لبنان، 2018م.

⁵ كمال أبو ديب: ناقدٌ ومفكّرٌ وسوريّ، حاصل على الدكتوراة في الدراسات النّقدية العربيّة والمقارنة من جامعة أكسفورد، وله العديد من المؤلّفات والترجمات.

⁶ انظر: إدوارد سعيد: الثقافة والإمبرياليّة، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014م، ص 9.

وشخصية إدوارد سعيد طغت، إذ إنَّ اتِّساع دائرة اهتماماته الفكرية، غيّرت خارطة الحياة الفكرية المعاصرة¹، فقد امتاز إدوارد سعيد بهدم الحدود بين المجالات المعرفية، فكان ناقداً طليعياً، تدافعت دور النشر العالمية؛ لنشر المؤلفات التي تُعنى بسيرته وحياته وآراء المعارضين له وبالسجلات التي دارت حول كتبه وإنتاجه المعرفي الذي يبدأ بالنقد الأدبي، ولا ينتهي إلا عند نقد الموسيقى²، فاهتمامات إدوارد سعيد شملت وفق منيرة الفاضل³ – الأدب المقارن، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والدراسات الإثنائية، والدراسات الثقافية، والعلوم السياسية، والنقد الموسيقي، والأدب الإنجليزي⁴. كما أنَّه من أوائل من تنبّه إلى الصلات الكامنة بين العنصرية والإمبراطورية والعرقية في الفكر الغربي بوصفها أدوات لدعم تمرکز العرقية الغربية. فقد استطاع إدوارد سعيد الذي عانى بنفسه من الاستعمار أن يبني بمفرده حقلاً بحثياً، فكشف ووضّح وحلّل وقوّض ونقض ورفض، وعمّق الفهم حول الظواهر الاستعمارية، وكل ما يتّصل بها من أدوات ووسائل ثقافية⁵، فهو من أعطى مصطلح الاستشراق بُعداً دلاليّاً مغايراً، وبفضله اكتسب المصطلح دلالاتٍ تجريبيةً نصوصيةً وفق ما ذكر سعد البازعي⁶، فكتاب (الاستشراق) كان بمثابة إنجيل نقد ما بعد الاستعمار على حدّ تعبير وحيد بوعزيز⁷، وهو العمل الذي صكّ فيه إدوارد سعيد الكثير من الأدوات الإجرائية النقدية، فالسيطرة الاستعمارية، قامت على دعائم ثقافية، وتسبّبت أيضاً في خسائر ثقافية، إذ رُبط الاستعمار بالوجود والكيونة، فالمستعمر موجودٌ بالفعل، في حين أنَّ المستعمر يصبح خارج التاريخ من لحظة استعمارهِ على حدّ تعبير وولتر رودني⁸. وكانَّ على المستعمرين أن يُميتوا المستعمرين حتّى يَحْيُوا. كلّ هذا الاضطهاد الفكري والثقافي يُقابل بخطاب تسويغ غربي، ويُزوّد بمسوغاتٍ مقنعة. في حين أنَّ الدول المستعمرة لا تملك الحقّ في تفكيك هذا الخطاب، ودحضه وتكذيبه، بل عليها تصديقه وإثباته، وجعله حقيقةً لا تقبل النفي والتشكيك.

ثانياً: مرحلة البدايات:

تعدّ تجربة المفكر هشام شرابي⁹ من التجارب النقدية المتميزة من خلال اعتمادها على طرحٍ منهجي، يعي إشكاليات الفكر العربي المعاصر من جهة، ويقدم تصوّراً عميقاً للبنى الاجتماعية والثقافية العربية من جهةٍ أخرى. إذ يحاول هشام شرابي أن يؤطّر الحدود بين العرب والغرب، وأنّ يقدم آلية لقراءة الفكر الغربي حضارياً وثقافياً على حدّ تعبير ديب حسن علي¹⁰، فيرى هشام شرابي أنَّ المجتمع العربي، يعاني من البطيركية، وما يتولّد عنها من استبدادٍ وتسلّطٍ وظلم، يبدأ بالأسرة، وينتهي بالدولة. فيقدّم نقداً حضارياً يرفض من خلاله الأيديولوجيات الثورية القديمة، كما يُنكر الفكر الأصولي دون المساس بالمرتكزات الروحية والدينية.

¹ انظر: بشير ريوخ: سؤال المثقف عند إدوارد سعيد (إدوارد سعيد: الهجنة، السرد، الفضاء الإمبراطوري)، تأليف: مجموعة من الأكاديميين العرب، دار الروافد الثقافية، بيروت، ط1، 2013م، ص 102.

² انظر: فخري صالح: إدوارد سعيد: دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م، ص 87.

³ منيرة الفاضل: ناقدة وأكاديمية بحرينية، حصلت على الدكتوراة من جامعة إسكس، وكانت عضواً محكماً في جائزة الرواية العربية 2011م.

⁴ انظر: منيرة الفاضل: إدوارد سعيد وما بعد الكولونيالية، ندوة فكرية بعنوان: (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلية الآداب، جامعة البحرين، 2-12 / 2003م، ص 14-15.

⁵ انظر: سامية بن علوش: العلمانية في الفكر المقاوم لإدوارد سعيد من اللا ديني على الديني، العلمانية والسجلات الكبرى في الفكر العربي المعاصر من هواجس التأسيس المتعالية إلى مأزق النقد الحديث، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، الرباط، المغرب، 2016م، ص 85.

⁶ انظر: سعد البازعي: الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2008م، ص 34.

⁷ انظر: محمد السيد: إدوارد ودع سعيد ناقداً إعلامياً، ندوة فكرية بعنوان: (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلية الآداب، جامعة البحرين، 2-12 / 2003م، ص 123.

⁸ انظر: خالد سليمان: في أدب ونقد – ما بعد الكولونيالية، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، مج 14، ع 54، جدة، السعودية، 2004م، ص 90.

⁹ هشام شرابي: مفكرٌ ومؤرّخٌ فلسطيني، تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت 1974م، وله العديد من المؤلفات.

¹⁰ انظر: ديب علي حسن: هشام شرابي.. هل حدّد أزمة المثقف العربي؟، جريدة الثورة، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، العدد (23)، الأحد 16 / 1، دمشق، 2005م، ص 13.

والتحدي الحضاري أمام العرب كما رآه شرابي يكمن في:

أولاً: الحاجة لفهم الغرب من منظور ما نريده نحن من الغرب.

ثانياً: الابتعاد ما أمكن عن نظرية التحديث والتقليد في مواجهتنا مع الآخر الغرب، والسعي لبناء طريق حضاري مستقل¹.
وحتى نحقق هذا الاستقلال الحضاري يجب أن نستعين بالنقد الغربي بوصفه آلية ومنهجية، فنرى كيف نقد النقد الغربي ذاته وكيف نقد حضارته في تمركزها على ذاتها وتهميشها للآخر؟

وبالانتقال إلى الناقد عبد الله إبراهيم² الذي تندرج طروحاته النقدية ضمن مقولة المركزيات والسرديات الكبرى بوصفها محوراً من محاور نقد ما بعد الاستعمار، فالاستشراق كما رأى إبراهيم هو آلية فكرية، توضح أسلوباً من أساليب العقل الغربي في بلورة الآخر وفقاً لما يحدده الغرب، فالاستشراق فلسفة، تستند إلى المرجعية الثقافية الغربية التي تصور الآخر وفق مقولاتها ومحدداتها³. فالتمركز الغربي من جهة، والنمذجة الغربية للآخر الشرقي من جهة أخرى، تعكس تعصباً ثقافياً وعرقياً غريباً، هذا التعصب هو أساس العلاقة القائمة بين الشرق والغرب، فإبراهيم عمل على تفكيك المرويات الغربية القديمة والحديثة وذلك بالاعتماد على آليتي العرض والمقارنة، وتوصل إلى أسباب النمذجة الدينية والحضارية، فالغرب صور الشرق وفق حاجاته وأهوائه.

كما رأى أن العلاقة بين الذات والآخر قائمة على فكريتي المطابقة والاختلاف، فالمطابقة تعكس استناد الذات العربية إلى الغربية أكثر من استنادها إلى أصولها الحضارية ومرجعياتها التاريخية. في حين أن الاختلاف لا يدعو إلى القطيعة مع الآخر بقدر ما يدعو إلى حوار متكافئ معه، هذا الاختلاف يحتاج إلى مساءلة الآخر/ الغرب منهجياً ومعرفياً بغرض البناء على ما لديه، وليس التشبّه به والخضوع له⁴.

فالغرب يحاول إقصاء وتهميش كل ما هو غير غربي بوصفه خارج الفلك التاريخي، فالغرب وحده محور التاريخ، حتى الحديث هو صفة لازمة للأيديولوجية الغربية التي سنتها وفقاً لتصوراتها. وبهذا يتحدد العالم والإنسان من منظور الغرب، الذي يجعل نفسه مرجعية لتحديد الأهمية، فيتحول الآخر إلى مكون هامشي حضاري وتاريخياً.

وبهذا المعنى، يكون نقد عبد الله إبراهيم يتمحور حول تفكيك المركزيات الغربية بهدف إظهار عمق الحضور الكولونيالي، فإبراهيم لم يتبن نقد ما بعد الاستعمار، لكنه تطرق إلى قضايا تمس المحاور الأساسية لهذا النقد وبخاصة الاستشراق، وفي هذا السياق تندرج أعمال العديد من المفكرين العرب الذي سعى إلى تعرية النسق الغربي وتفكيك مقولاته وتقويض مقاصده الأيديولوجية، كعبد الوهاب المسيري⁵ وحسن حنفي⁶ الذي حاول في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب)؛ "فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركّب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس"⁷. فحسن حنفي بما قدمه، يعدّ من رواد علم الاستغراب، حيث سعى لإعادة فهم الاستشراق من خلال إدراك المنظومة الفكرية والفلسفية والعلمية الغربية بغية إظهار قوة الغرب وضعفه أيضاً.

وكذلك في ترجمات عبد الوهاب المسيري وخصوصاً عند قيامه بترجمة (الغرب والعالم) لـ كيفن رايلي، حيث أظهر بعضاً من أوجه الخلل في الثقافة الغربية، مسقطاً المقولات التي تحتفي بتفوقها وعالميتها، فالنسقية المضمرّة لأيديولوجيا الاستعمار

¹ انظر: هشام شرابي: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط3، 1984م، ص 31.

² عبد الله إبراهيم: ناقدٌ وأكاديميٌّ عراقي، حصل على درجة الدكتوراة من جامعة بغداد عام 1991م، وله العديد من المؤلفات.

³ انظر: عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م، ص 175.

⁴ انظر: عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التكوين والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م، ص 6.

⁵ عبد الوهاب المسيري: مفكرٌ وعالم اجتماع مصري، حصل على درجة الدكتوراة من جامعة رتجزر بنيوجيرزي عام 1969م، ويعدّ واحداً من أبرز المؤرخين المتخصصين في الحركة الصهيونية.

⁶ حسن حنفي: مفكرٌ وأكاديميٌّ مصري، حصل على الدكتوراة من السوربون، و يعدّ واحداً من أهم منظري علم الاستغراب.

⁷ حنفي، حسن: التراث والتجديد – موقف من التراث القديم، دار التنوير، بيروت، ط1، 1981م، ص 21.

على حدّ تعبير أسامة أحمد جاسم¹، تبني منظومةً قيميةً، تحرّك الممارسات السلوكية، فالإنسان يكون صوراً إدراكيةً عن نفسه وعن واقعه وعمّن حوله من بشرٍ ومجتمعاتٍ وأشياء. فالبلدان المستعمرة تعاني من حالةٍ تبعيةٍ إدراكيةٍ كاملةٍ كما ذكر المسيري²، حيث تستورد نماذجها المعرفية من الآخر الغالب والمهيمن، وهذا نوعٌ من التبعية الكامنة، التي تتمظهر بأشكالٍ عدّة، ك: أسلوب الحياة، ورؤية الذات ورؤية الآخر، فتتميّ داخل الذات إحساساً ضمناً بالتخلف والهزيمة والانكسار تجاه الآخر المتقدّم والقوي³.

فالفكر الاستعماريّ الغربيّ عابرٌ للزّمان والمكان، لكنّه بات يتّخذ صوراً أكثر توريةً، فالهيمنة وفرض النمط الثقافيّ الغربيّ بصفته كونياً، يتجلّى مرّةً أخرى في العولمة، فالعولمة تملك "مجالاً جيو سياسياً، تنطلق منه؛ إنّه الغرب الذي هو في طور البحث عن هويةٍ جماعيةٍ، تتيح له تسويق نظريته المركزية للعالم التي تلبس لبوس الخير والحقّ والجمال، بينما ترمي بالدونية الآخر بتهمة الشرّ فقط؛ لأنّه يرفض أن يكون غير ذاته⁴. فالعولمة ليست إلّا شكلاً أكثر معاصرةً من الاستعمار، وترمي إلى خلق إنسان جديد دون ذاكرة⁵.

ونظراً لما للغّة من أهميّة في نقد ما بعد الاستعمار، فقد ذهبت فريال غزول في تقديمها لكتاب (اكتشاف أمريكا) إلى القول بأنّ مفردة (اكتشاف)، تبعث على الحرج في استعمالها؛ لما تتطوي عليه من عنصرية ومركزية أوروبية، فاكتشاف نابغةً من أنّ المستكشف أوروبيّ، ومن أنّ تلك البلاد كانت مجهولةً بالنسبة إليه، لكنّها كانت معروفةً بل وعامرةً بأهلها وبسكانها الأصليين، ممّن يمتلكون حضارةً عريقةً، لكنهم مجهولون بالنسبة لـ أوروبا؛ لذا فهم غير موجودين بالمفهوم الأوروبيّ الاستعماريّ، فتلك الكلمة حملت في مضامينها معاني أيديولوجية، تعكس المركزية الغربية في ظلّ تغييب الآخر غير الأوروبيّ، فسكّان البلاد لا يمكن أن ينظروا إلى تلك الحملات الاستعمارية بوصفها (اكتشافاً)، بل هذه وجهة نظر الأوروبيّ. وهذا سبب كافٍ ومقنّع؛ لتنبّئها ثمّ تعميمها⁶، فالتسميات على بدايتها توحى باستملاك الآخر لغوياً وتغييبه وتهميشه، فوجوده أو عدم وجوده يتحدّد من وجهة النّظر الأوروبية فقط.

كما قام علي بهداد⁷ في محاولة لتفكيك خطاب الهيمنة الكولونيالية، لكنّه خطابٌ متشابكٌ متداخلٌ، يستولد تعدديةً في المواقف والتمثّلات؛ لذا فأبّ تشكيّل نقديّ يستهدفه ينبغي أن يتحصّن بحقول معرفية عدّة. إذ يستولد علمُ الإمبريالية بوصفه خطاباً حديثاً للسلطة تعدديةً في الموضوع وفي المواقف الأيديولوجية، ممّا يعني تعدّد تقديم أيّ نقدٍ لهذا العلم إلّا عبر ممارسة معرفية مشتركة الحقول، فيقول: " ولقد عمدتُ إلى دراسة نصوص تنتمي إلى غير حقلي تمثيلي من الحقول؛ لأسلّط الضوء على تعقيدات الاستشراق دون نية في تشييد حقلي موحّد من الممارسات الخطابية، أو اقتراح وحدة موضوعية تحكم هذه الأخيرة، كما استعرتُ، بتوجّهٍ مشابهٍ، نصوصاً نظريةً من غير حقلي معرفي كالأنثروبولوجيا،

¹ انظر: أسامة أحمد جاسم: المركز والهامش وإستراتيجيات التفكيك المضاد: مقارنة في خطاب نظرية ما بعد الاستعمار، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل للبحث العلمي، ع 23 (خاص بالتمثّلات)، بيروت، 2016م، ص 77.

² انظر: المسيري، عبد الوهاب: حوار نقديّ حضاريّ، تقديم: محمّد حسنين هيكال، تحرير: أحمد عبد الحليم عطية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2004م، ص2/ 9.

³ انظر: المرجع السابق، ص: 2/ 9.

⁴ نصر الدين بن غنيسة: عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، بيروت: لبنان. الرباط: المغرب. الجزائر: الجزائر. منشورات ضفاف/ دار الأمان/ منشورات الاختلاف، ط1، 2012م، ص: 21.

⁵ انظر: المرجع السابق، ص: 23.

⁶ انظر: تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، تقديم: فريال جويرو غزول، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992م، ص 8.

⁷ علي بهداد: أستاذ الأدب المقارن في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة كاليفورنيا، وتشتمل انشغالاته الأكاديمية على غير حقلي نقدي يتوزّع بين النظرية والأدب ما بعد الكولونيالين، والنقد الثقافي، والنقد الثقافي، والتمثّلات الأوروبية حول الشرق الأوسط.

والنظرية الأدبية، والتاريخ، والفلسفة والتحليل النفسي، ناظرًا إليها، طبقاً لرؤية جيل ديولوز كعدة عمل لا يتوجب استخدامها إلا حين تثبت نفعها وجدواها، وتقدم إضافة ما لغيرها من حقول البحث¹.

أما إشكالية الهوية، التي تعدّ واحدة من أهمّ مباحث نقد ما بعد الاستعمار، فقد حظيت باهتمام العديد من المفكرين العرب، فعلوم بلدان العالم الثالث، تحمل سماتٍ، تؤكد خضوعها للمقولات الاستعمارية، ومنها التعاطي غير النقدي مع النظريات الغربية، والعجز عن تكوين رؤية مستقلة ومستمدّة من واقع تلك البلدان، كما يرافق ذلك انبهارٌ شديدٌ بالنموذج الغربي؛ لذا تكون المحاكاة قاصرةً عن إدراك ما بين الثقافات من اختلافاتٍ قوميةٍ وحضاريةٍ²، فما يقدمه الغرب يحتمل القبول والرفض والانتقاء والتصرف، حتّى تسير الثقافة على هدي الاستحضار الواعي والفعال للخصوصيات الثقافية، وذلك يحدث عندما نعترف بالآخر بوصفه شريكاً في بناء الحضارة، لا الآخر المستعمر الذي ينبغي إلغاء هويتنا وتدميرنا³، فالتعلم من غيرنا هو خطوة لا بدّ منها، لكنّ التعلم لا يعني التقليد؛ لأنّ التقليد هو اعترافٌ بعجزنا عن تقديم إبداعٍ أصيل، كما رأّت الدكتورة ماجدة حمود، "فأيّ إبداعٍ أصيلٍ قد يحويّ تأثراً بالآخر، لكنّه يحتوي في الوقت نفسه خصوصيته، أي بصمته الخاصة"⁴ في حين رأى عبد الله العروي⁵ في الماركسية حلاً لشتات العرب الفكري، "بوصفها النظام المنشود الذي يزودنا بمنطق العالم الحديث..."⁶. هذا الطرح لا يقدّم حلاً بقدر ما يكشف عن جانبٍ من إشكاليات الثقافة، وهو حتمية الاتجاه إلى الغرب. فبعد الله العروي في مفهومه للماركسية الموضوعية يوجّه سؤالاً للمفكرين العرب: "كيف يمكن للفكر العربي أن يستوعب مكتسبات الليبرالية قبل (وبدون) أن يعيش مرحلة ليبرالية، مجيباً: أنّه إذا كان لا بدّ من الاختيار بين المنهج التقليدي وبين الليبرالية، فإنّي أختار هذه الأخيرة على أن أتجاوزها سريعاً نحو إشترائية عصرية"⁷.

كما تعرّض الباحث كمال عبد اللطيف⁸ لتاريخ الثقافة التي بدأت منذ منتصف القرن العشرين، فرأى أنّ الهيمنة الغربية تسبّبت في تأثير قويّ فكرياً، ممّا أدّى إلى مواقف حادّة ومقاطعة، كما ولّد الانتقائية والازدواجية، وهما ملمحان بارزان في الخطاب العربي المعاصر⁹، وتطرّق زكي نجيب محمود¹⁰ لهذه الإشكالية متسائلاً "كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عربيتنا أو نفلت منها"¹¹.

وبهذا، تكون محاولة تهجين الثقافة، أثبتت عدم جدواها، وربّما يمكن تجاوز إشكاليات الثقافة عبر إعادة النظر في التحقيب التاريخي بإيجاد طرقٍ لا تُحدثُ انكساراً معرفياً في السياق الإبداعي العربي من الناحيتين المنهجية والتجريبية، وذلك من خلال القيام بمراجعة نقدية للإرث الفكري المتصلّب بغية خلخلته، وإعادة النظر في الأسس والمفاهيم التي يقوم عليها وينطلق منها بطرقٍ تتناسب مع الثقافة العربية، وليس بطرقٍ مستمدّة من ثقافاتٍ أخرى. وهذه المعرفة لـ الأنا "

¹ بهداد، علي: الرخالة المتأخرون الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، ترجمة: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، دبي، الإمارات، ط1، 2013م، ص17-18.

² انظر تفصيل ذلك: أمينة رشيد: التبعية الثقافية: مفاهيم وأبعاد تحرير، بحث ندوة مركز البحوث العربية، القاهرة، 1999م، ص17-18.

³ انظر: ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص5.

⁴ حمود، ماجدة: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص143

⁵ عبد الله العروي: مفكر مغربي، حصل على الدكتوراة من معهد الدراسات السياسية في باريس، يعدّ من أنصار القطعية مع التراث العربي والإسلامي.

⁶ العروي، عبد الله: العرب والفكر التاريخي، دار التنوير والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1983م، ص63.

⁷ العروي، عبد الله: المرجع السابق، ص16-39.

⁸ كمال عبد اللطيف: مفكر وكاتب مغربي، وهو أستاذ الفلسفة السياسية والفكر العربي المعاصر في جامعة محمد الخامس في الرباط.

⁹ انظر: كمال عبد اللطيف: قراءات في الفلسفة العربية المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1994م، ص50.

¹⁰ زكي نجيب محمود: مفكر وأكاديمي مصري، حصل على الدكتوراة من جامعة لندن، وكانت أطروحته بعنوان الجبر الذاتي.

¹¹ محمود، زكي نجيب: تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط2، 1973م، ص5_6. وانظر أيضاً: تحليل أسامة الموسى لتجربة زكي نجيب محمود في كتابه: المفارقات المنهجية في فكر زكي نجيب محمود، جامعة الكويت، الكويت، 1997م، ص35

ضرورية ضرورة الألوان للأعمى¹، وبهذا يتحدّد مفهوم الآخر بأنه "كلّ ما ليس أنا، سواء أكان قريباً منّي كلّ القرب، أو بعيداً عنّي كلّ البعد؛ أي هو من لا يُشبهني"². فإدراك الأنا لـ الآخر يتمّ عن طريق القياس أو النسخ أو السعي إلى الموازنة أو المحاكاة³، في حين يكون تأجيج الصراع من خلال رسم صورة متضادة للذات عن الآخر وللآخر عن الذات⁴. فالخيار بين هويّتنا وبين الاستلاب للآخر؛ لذا لا يمكن تشخيص نقاط ضعف الثقافة العربيّة بأدوات نستعيرها من الآخر الغربي، وهذه الإشكاليّة مستجدّة، وما تزال تلقى العديد من الأصداء، فمنذ منتصف القرن العشرين تحدّث العقاد عن (الهويّة الواقعية) التي هي ألزم للعالم العربيّ من أيّ وقت مضى. فالهويّة هي: "مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص والتميزات التي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى"⁵. فالهويّة العربيّة هي الثقافة العربيّة بمعناها الشامل، هي الواقع التاريخي والمعاصر، هي الانتماء بكلّ ما يحمله من معانٍ، هي أمرٌ لا يحقّ لأحد نكرانه أو إثباته، فهي الوجود الحاضر بالقوّة لا بالفعل، فلا نحن نتمسك بهويّتنا ولا نحن سنصبح ذلك الغرب الخاضعين له فكرياً وثقافياً. فالتلقّي العربيّ لنقد ما بعد الاستعمار إذن، كان شاحباً وغريباً وغير مُسوَّغ، لكونه لم يحدث الأثر المتوقع له، إذ حظي كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد بأصداءٍ في ثقافاتٍ متعدّدة ومتنوّعة ومتباعدة وخاصّةً في دول العالم الثالث، ولا سيما الهند، بوصفه من أكثر الكتب جدلاً، وبعده أساساً لحقلٍ معرفيٍّ تصدّى للممارسات الاستعماريّة الثقافية.

خاتمة

ما تزال قضية تفكيك البنى الاستعماريّة راهنةً بل ومتجددة؛ نظراً لكون الإمبرياليّة استعماراً يتجاوز الحدود الجغرافيّة والعسكريّة إلى الاستعمار الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وبهذا المعنى، يغدو نقد ما بعد الاستعمار حاضراً في الوعي كما في الممارسة.

لكن النقد العربيّ تنبّأ خطاب ما بعد الاستعمار من منظور إدوارد سعيد الفكريّ، فاكتفى بعرض ما قدّمه دون زيادةٍ أو نقصانٍ، ولم يُحدث نقد ما بعد الاستعمار الأثر المُتوخّى منه بل بقي معظم التلقّي العربيّ يحوم حول شخصيّة إدوارد سعيد وحول آرائه في الكثير من القضايا المعاصرة أكثر ممّا تطرّق لنقد ما بعد الاستعمار، وربما يعود ضعف تأثير إدوارد سعيد في العالم العربيّ إلى تركيز القراء العرب على الجانب الأيديولوجي من آرائه؛ لذلك لم يشارك فكر إدوارد سعيد في خلق منظور نقديّ معرفيٍّ، يتضمن الأفق الأيديولوجي ولا ينطلق منه، وربما يعود السبب إلى أنّ محدّدات إدوار سعيد النقديّة، تتطلب حقراً معرفياً في البنى المؤسّسة لفكره قبل نقده، فهذا الفكر هو الذي ولّد هذا النقد.

النتائج

1. طروحات إدوارد سعيد، لم تستثمر استثماراً فاعلاً في الثقافة العربيّة، بل على العكس تمّ تهميش الثقل في فكره في مقابل الدوران حول قضايا، كانت نتائج لأطروحاته لا أسباباً لها.
2. كان التلقّي العربيّ لنقد ما بعد الاستعمار شاحباً وغريباً وغير مُسوَّغ، لكونه لم يحدث الأثر المتوقع له .

¹ سعيد، إدوارد: تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996م، ص142.

² حرب، علي: الممنوع والممتنع: نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005م، ص 24.

³ انظر: علي حرب: الاختتام الأصوليّة والشعائر التقديميّة: مصائر المشروع الثقافي العربيّ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م، ص50.

⁴ انظر: أمل عيسى: جهود إدوارد سعيد النقديّة للاستشراق_ نقد ما بعد الاستعمار، إشراف: الدكتور وائل بركات، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة دمشق، دمشق، 2007م، المقدمة

⁵ نقلاً عن العتيبي: سالم، أمل: الهويّة الإسلاميّة والتحديات التي تواجهها، موقع الألوكة الثقافية، 2012/4/18 م.

<https://www.alukah.net/culture/0/40298/>، تاريخ الولوج : 2023-12-9م

3. عبّر إدوارد سعيد نفسه عن خيبة أمله؛ لأنّ تأثير كتابه (الاستشراق) في العالم العربيّ كان محدوداً على خلاف الأثر الذي أحدثه في باقي مناطق العالم.
4. وصف إدوارد سعيد التلقّي العربيّ لمؤلّفاته، بأنّها تحليلٌ أقلُّ فائدةً بالمعنى المثمر، فقد شابّه الكثير من سوء الفهم وسوء الإدراك.
5. إنّ مقارنة التلقّي العربيّ لهذا الكتاب بالتلقّيات الأخرى، تدلُّ على هشاشة الاستقبال العربيّ وضحاياه وبؤسه، فالتلقّي العربيّ حشر مشروع إدوارد سعيد في زوايا ضيقة، توحى أنّ القراءة العربيّة له لم تتعدّ الجزئيات.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، عبد الله: الثقافة العربيّة والمرجعيات المستعارة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م. المركزيّة الغربيّة، إشكاليّة التكوّن والتمركز حول الذات. المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م.
- أبو شهاب، رامي: الرسيس والمخاتلة: خطاب ما بعد الكولونياليّة في النقد العربيّ المعاصر (النّظرية والتطبيق)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013م.
- البازعي، سعد: الاختلاف الثقافيّ وثقافة الاختلاف، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، 2008م.
- بن علوش، سامية: العلمانيّة في الفكر المقاوم لإدوارد سعيد من اللادينيّ على الدنيوي، العلمانيّة والسجلات الكبرى في الفكر العربيّ المعاصر من هواجس التأسيس المتعالية إلى مأزق النقد الحديث، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة، الرباط، المغرب، 2016م.
- بن غنيسة، نصر الدين: عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، بيروت: لبنان. الرباط: المغرب. الجزائر: الجزائر. منشورات ضفاف/ دار الأمان/ منشورات الاختلاف، ط1، 2012م.
- ابن الوليد، يحيى: الوعي المحلّق إدوارد سعيد وحال العرب، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة، ط1، 2010م.
- حرب، علي:
- المنوع والممتنع: نقد الذات المفكرة، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005م. الأختام الأصوليّة والشعائر التقديميّة: مصائر المشروع الثقافيّ العربيّ، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م.
- حفاوي، بعلي: مدخل في نظريّة النقد الثقافيّ المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م.
- حمود، ماجدة: مقاربات تطبيقيّة في الأدب المقارن، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2000م.
- حنفي، حسن: التراث والتجديد_ موقف من التراث القديم، دار التنوير، بيروت، ط1، 1981م.
- راغب، نبيل: موسوعة النّظريّات الأدبيّة، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، القاهرة، ط1، 2003م.
- ربوح، بشير: سؤال المثقّف عند إدوارد سعيد (إدوارد سعيد: الهجنة، السرد، الفضاء الإمبراطوريّ) تأليف: مجموعة من الأكاديميين العرب، دار الروافد الثقافيّة، بيروت، ط1، 2013م.
- الرويلي، ميجان، البازعي، سعد: دليل النّاقد الأدبيّ، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002م.
- شرابي، هشام: مقدّمات لدراسة المجتمع العربيّ، الدار المتّحدة للنشر، بيروت، ط3، 1984م.
- صالح، فخري: إدوارد سعيد: دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م.
- عبد اللطيف، كمال: قراءات في الفلسفة العربيّة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1994م.
- العروبي، عبد الله: العرب والفكر التاريخي، دار التنوير والمركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، 1983م.

- العمي، محمد: الاستشراق_ الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006م.
- محمود، زكي نجيب: تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط2، 1973م.
- المسيري، عبد الوهاب: حوار نقدي حضاري، تقديم: محمد حسنين هيكل، تحرير: أحمد عبد الحليم عطية، دار الشروق القاهرة، ط1، 2004م.
- الموسى، أسامة: المفارقات المنهجية في فكر زكي نجيب محمود، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1997م.

الكتب المترجمة

- بهداد، علي: الرحالة المتأخرون الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، ترجمة: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مراجعة: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع كلمة، دبي الإمارات، ط1، 2013م.
- تودوروف، تزفيتان: فتح أمريكا مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، تقديم: فريال جبوري غزول، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992م.
- سعيد، إدوارد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط4، 2014م.
- تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996م.
- الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة: محمد عناني. ط1. القاهرة: مصر. رؤية للنشر والتوزيع . 2006م

المجلات والدوريات:

- أحمد جاسم، أسامة: المركز والهامش وإستراتيجيات التفكيك المضاد: مقارنة في خطاب نظرية ما بعد الاستعمار، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل للبحث العلمي، ع 23 (خاص بالتمثلات)، بيروت، 2016م.
- بخيت، كريم: بين الأدب والنقد والسياسة: قراءة في كتابات إدوارد سعيد، مجلة بصمات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثانية، ع2، الدار البيضاء، المغرب، 2007م.
- حسن، ديب علي: هشام شرابي.. هل حدّد أزمة المثقف العربي؟، جريدة الثورة، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، العدد (23)، الأحد 16 / 1، دمشق، 2005م
- سليمان، خالد: في أدب ونقد _ ما بعد الكولونيالية، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، مج 14، ع 54، جدة، السعودية، 2004م.
- عز الدين حسن، مجدي. نقد الكولونيالية من منظور إدوارد سعيد، مجلة الاستغراب، العدد 12. للمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت: لبنان، 2018م.

الندوات والمؤتمرات

- رشيد، أمينة: التبعية الثقافية: مفاهيم وأبعاد تحرير، بحوث ندوة مركز البحوث العربية، القاهرة، 1999م.
- السيد، محمد: إدوارد وديع سعيد ناقداً إعلامياً، ندوة فكرية بعنوان: (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلية الآداب، جامعة البحرين، 2-7 / 12 / 2003م.
- الفاضل، منيرة: إدوارد سعيد وما بعد الكولونيالية، ندوة فكرية بعنوان: (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلية الآداب، جامعة البحرين، 2-7 / 12 / 2003م.
- كاظم، نادر: إدوارد سعيد الاستشراق والتلقي العربي، ندوة فكرية بعنوان (إدوارد سعيد داخل المكان)، كلية الآداب، جامعة البحرين. 2-7 / 12 / 2003م.

الرسائل العلمية

- عبيسي، أمل: جهود إدوارد سعيد النقدية للاستشراق_ نقد ما بعد الاستعمار/ إشراف: الدكتور وائل بركات. رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية، 2007م.

المواقع الإلكترونية:

- موقع الألوكة الثقافية، 2012/4/18 م. <https://www.alukah.net/culture/0/40298/>، تاريخ الولوج : 9-12-2023م